القصف الغربي لسورية: تضارب في الروايات حول تحقيق الاهداف.

٦ أيام من التخطيط والاتصالات واحتساب مخاطر العملية

قصف سورية: ما الذي جرى خلف الكواليس في البيت الأبيض؟

توعَّد الرئيسُ الأميركي، دونالد ترامب، الرئيسَ السوري بشار الأسد، وحليفتيه روسيا وإيران، بـ "ثمن غالٍ"، بعد أن أبلغه مساعدوه بمقتل العشرات في إحدى ضواحي دمشق مختنقين، بينما كان الزَّبَد يخرج من أفواههم، ولكن هناك أمرا آخر يشغل باله وهو يوجه هذا الوعيد.

الثمن الذي تحدَّث عنه ترامب وهو مشتت التفكير، يبدو أنه لم يدفعه أحد حتى الآن، كما أن إعلانه عن أن "المهمة تم إنجازها" في سورية، بدا تصريحاً كارثياً.

فمنذ اللحظة التي أخبر فيها رئيس موظفي البيت الأبيض جون كيلي، ترامب، ليلة الـ٧ من نيسان، بالواقعة قرَّر الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، أن يضرب سورية مرة أخرى.

رغم أن ذهنه كان مشغولاً بأمر آخر أخطر بالنسبة لمستقبله، كان السؤال بالنسبة لترامب يدور حول كيفية الضربة، لا إمكانية وقوعها.

لماذا غيَّر ترامب موقفه من سورية؟

مثَّل هذا الموقف تغيُّراً مفاجئاً في نبرة الرئيس، الذي قال منذ أيامٍ قليلة فحسب، إنه يريد سحب القوات الأميركية من الحرب السورية الممتدة، وكما قال بنفسه في فعاليةٍ أُقيمَت في ولاية أوهايو: "فلنترك الآخرين يهتمون بهذا الأمر الآن".

لكنَّ صور الفظائع، التي وقعت، الأسبوع الماضي، طاردت ترامب، بحسب مسؤولي البيت الأبيض، فأدت إلى ٦ أيام متصلة من المداولات المكثفة مع فريق أمنه القومي الذي أعيد تنظيمه حديثاً، فضلاً عن ائتلافٍ من الشركاء من فرنسا والمملكة المتحدة، حول عمليات عسكرية للقصاص من مرتكبها المزعوم، الذي سخر منه ترامب واصفاً إياه بـ"الأسد الحيوان".

وحتى بعد ابتهاج ترامب بالضربات الأخيرة، فإنَّ عدداً كبيراً من المستشارين المُقرَّبين من الرئيس قالوا إنه ليس لديهم أي دلائل على وجود استراتيجية طويلة المدى للمنطقة.

ولكن يبدو أنَّ الرئيس الآن على نفس موقفه الذي كان عليه بعد الهجوم السابق على سورية، في نيسان ٢٠١٧، رداً على هجوم كيميائي سابق اتهم به نظام بشار الأسد أيضاً.

وكانت النتيجة ١٠٥ صواريخ أُطلِقَت على ٣ من منشآت الأسلحة الكيماوية للرئيس السوري بشار الأسد، ليلة الجمعة الماضية، ١٣ نيسان.

وفي نيسان ٢٠١٧، أي منذ عام تقريباً، حدث تغيّر مماثل وسريع ومؤقت لموقف ترامب، عندما شهدت سورية هجوماً كيميائياً سابقاً، إذ اتخذ الرئيس الأميركي قراراً بقصف قوات الأسد، بعد أن تأثر بمشاهد وصفها ترامب نفسه بأنها "مروعة" للأطفال الراقدين على الأرض، وشفاههم اكتست باللون الأزرق".

الحرب الأهلية: أي مهمة قد تم إنجازها؟

"أي مهمة لواشنطن يريدها ترامب في سورية حتى يتحدث أصلاً عن إنجازها"، مع أنه سبق أن أعلن عزمه سحب القوات الأميركية من هناك، في إطار سعيه لإنهاء تورط بلاده في الشرق الأوسط.

فالضربات الأميركية الأخيرة لم تفعل شيئاً يُذكر لإضعاف قدرات الأسد، تاركةً له مواصلة شنّ الحرب على شعبه من خلال الوسائل التقليدية.

ولم تفعل الضربات شيئاً لإثبات "الثمن الكبير"، الذي وعد ترامب بفرضه على روسيا وإيران، لتمكينهما من الهجوم الكيميائي للأسد، في الوقت الذي انتقل المسؤولون الروس من الإصرار على نفي وقوع هجوم كيميائي أصلاً من قبل الأسد، إلى اتهام جماعات الثوار بالقيام به، وفي نهاية المطاف قالوا إن المملكة المتحدة خطَّطت له، في مؤامرة مع مجموعة الإنقاذ المتطوعين من ذوي الخوذ البيض في سورية.

ورغم قراره السريع بالرد على الهجوم الذي اتَّهم الأسد بالتورط به، فقد أبدى ترامب اهتماماً ضئيلاً بمحاولة توجيه سورية إلى حل حربها الأهلية، متجنباً أي نوع من الدبلوماسية على غرار عملية جنيف.

فما هي كواليس قرار ترامب ضرب قوات الأسد؟ الأمر لا يبدو أنه اقتصر على سورية، فهل هناك شيء آخر بالإضافة للأخبار المروعة للضحايا؟

مسؤولون في واشنطن قالوا إنَّ وزير الدفاع الأميركي، جيمس ماتيس، قاوم لعدة أيام، الاستنتاج النهائي بأنَّ حكومة الأسد كانت مسؤولة عن هجمة دوما، قائلاً إنه لم ير دليلاً كافياً على أنَّ الحكومة السورية مسؤولة عن الهجوم حتى آخر يوم الخميس.

لكنَّ رئيسه لم يشاركه هذه المخاوف. وحتى قبل إعداد الملخص الاستخباراتي الكامل عن الحادثة، كان ترامب قد ألقى باللائمة عليه في تويتر، صباح الأحد الماضي.

فقد غرَّد ترامب قائلاً: "مات الكثير، بمن فيهم نساء وأطفال، في هجومٍ كيماوي سافِر في سورية. إنَّ الرئيس بوتين، وروسيا وإيران مسؤولون عن دعم الحيوان الأسد. هناك ثمنٌ غالٍ لذلك".

وجاءت ضربات ليلة الجمعة الماضية في لحظةٍ مؤلمة بشكلٍ خاص لترامب، فالقائد العام للجيش الأميركي كان غاضباً بشدة، الأسبوع الماضي، بعد أن تزاحمت عليه القضايا القانونية والشخصية، فأظهر ومضاتٍ من الغضب الجام، ونفَّسَ عن غضبه على تويتر، ولكن أحياناً ما كان يبدو مشتتاً عن التخطيط للحرب. فعلى سبيل المثال، بينما كان المسؤولون العسكريون يضعون التفاصيل الأخيرة حول خطة ضرب سورية، كان ترامب يتابع إجراءات محكمة نيويورك التي شارك فيها محاميه الشخصي، مايكل كوهين، وركَّزَ على التغطية الإعلامية لمذكرات مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية المُقال، جيمس كومي.

وترسم هذه المذكرات صورةً لاذعة لسلوك الرئيس في منصبه وشخصيته، وقد شارك ترامب شخصياً، يوم الجمعة، في صياغة البيان الشديد الذي هاجم كومي، والذي قرأته السكرتيرة الإعلامية للبيت الأبيض، سارة هاكابي ساندرز من على منصتها يوم الجمعة، وذلك بحسب مسؤولٍ بارز في الإدارة.

ليس الكيميائي وحده ما أغضب ترامب

استشاط ترامب غضباً في صباح الاثنين، نيسان ٢٠١٨، وظَلَّ كذلك طوال اليوم، بعد أن علم بنبأ إغارة عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية على مكتب كوهين وغرفة فندقه ومقر سكنه.

وشكا إلى مستشارين وأصدقاء من أنَّ تحقيق المستشار الخاص، روبرت مولر، حول روسيا قد اتسع نطاقه إلى حدٍّ كبير.

كما اشتكى من المدعي العام جيف سيشنز، وفكَّر في إقالة نائب المدعي العام، رود روزنشتاين. وقال مسؤولون، إنَّ ترامب لم ينجز الكثير في ذلك اليوم حول استراتيجية سورية.

لكنَّ الهجوم الكيماوي المشتبه به في سورية بقي في ذهنه.

وقال المسؤولون إنَّ ترامب استيقظ، الأربعاء الماضي، ليعلم من شبكة فوكس نيوز أنَّ مسؤولين روساً قد هددوا بأنهم سوف يسقطون أي صاروخ أميركي يطلق على سورية.

فتعهَّد ترامب على تويتر قائلاً: "استعدي يا روسيا، لأنَّ الصواريخ سوف تأتي، وهي صواريخ رائعة وجديدة وذكية!".

تسبَّب الإعلان الواضح لترامب على تويتر عن هجومٍ صاروخي في مفاجأةٍ للقادة العسكريين الأميركيين وإزعاجهم.

فعلى الرغم من انتقال الحديث حول الاستراتيجية إلى اتجاه العمل العسكري، فإنَّ القرار لم يكن قد اتُّخذ بعد، بحسب المسؤولين، حول موعد الضربة في سورية أو كيفيتها، ولم يتقدم القادة العسكريون لترامب بالخيارات النهائية حول الأهداف قبل يوم الخميس.

وقد توصَّلَ المسؤولون العسكريون الأميركيون خلال مناقشاتهم، للمعلومات الاستخباراتية، حول هجوم الـ٧ من نيسان ٢٠١٨، على دوما، على حدود العاصمة دمشق بشكل شبه فوري، إلى أنَّ عمليات القتل هذه أخطر بكثير من الحوادث الكيماوية السابقة، ذات النطاق الأصغر، التي أبلغ عنها نشطاء سوريون وأطباءُ خلال الشهور الأخيرة.

وخلال ساعاتٍ من معرفة ما جرى في دوما من خلال الشبكات الاجتماعية، أبلغ المسؤولون العسكريون قادتهم، وفي غضون وقتٍ قصير بدؤوا في استكشاف الخيارات الانتقامية لترامب.

وفي واشنطن، تحدَّثَ ماتيس ومسؤولون بارزون عن هجمةٍ مُحتَمَلة مع البيت الأبيض، وبينما عبَّرَ ترامب عن المزيد من الإلحاح على تويتر، زادت كثافة تخطيط البنتاغون.

وقد زاد القادة الأميركيون من الإجراءات الأمنية للقوات الأميركية في الشرق الأوسط، بينما كانوا يعدون لبدء الضربة، فوضعوا القوة الأميركية التي يبلغ عددها حوالى ألفي جندي داخل سورية على أهبة الاستعداد.

الثمن الغالي..

وقد جاءت الضربات التي وصفت بالدقيقة يوم الجمعة أكثر تحفُّظاً من الصورة التي حاول ترامب رسمها عبر تغريداته المولعة بالقتال التي سبقت الضربة.

فقد حذَّر ترامب، الأحد الماضي الماضي، الأسد وداعمي حكومته، روسيا وإيران، من "ثمنٍ غالٍ سوف يدفعونه". وكتب، الأربعاء الماضي، أنَّ الصواريخ "سوف تأتي. صواريخ لطيفة وجديدة وذكية!".

لكن ما لا شك فيه أنَّ نبرة كبار المسؤولين الأميركيين، في الاجتماعات المغلقة لمجلس الأمن القومي، كانت أكثر تحفُّظاً من تغريدات ترامب، وخيَّم على تلك المناقشات مخاوف من أنَّ هجوماً أميركياً في سورية قد يستفز صراعاً مع روسيا، التي هدَّدَت بالقصاص.

وعقَّدَ غياب استراتيجية واضحة في سورية من هذه المناقشات. إذ كان ترامب قد خاض حملته الانتخابية بوصفه غير مؤيد للتدخل، وتعهَّدَ بالانسحاب من توريطات الشرق الأوسط التي قال إنها تُكلِّف الأميركيين أرواحاً وأموالاً هائلة.

ومع ذلك، فقد بدا اتخاذ إجراء من أي نوع أمراً ضرورياً لفريق الأمن القومي لترامب، إذ قال مسؤولون أميركيون إنهم استمعوا إلى الرئيس ترامب وهو يسخر من سلفه، باراك أوباما، لمناقشة الأخير، في بعض الأحيان، اتخاذ إجراء عسكري، ثم عدم تنفيذه لهذا الإجراء.

وأشار ترامب، في عشاءٍ بالبيت الأبيض، الثلاثاء الماضي، إلى أنَّ المشكلات في سورية سببها أنَّ "أوباما لم يفرض خطوطه الحمر"، وذلك بحسب آلان درشويتز، أحد الحضور، وهو أستاذ متقاعد بكلية القانون في جامعة هارفارد الأميركية.

وقال مسؤولون في البيت الأبيض، إنَّ ترامب قد أصرَّ على أن تضعف الضربات إنتاج الأسلحة الكيماوية في سورية، وكان يأمل أنَّ ذلك من شأنه منع الأسد من شنّ هجماتٍ مستقبلية على شعبه.

كما أراد ترامب إحداث المزيد من الأضرار، أكثر من تلك التي نتجت عن الهجوم الجوي الرمزي الذي أمر به في العام ٢٠١٧ على مطارٍ سوري، سرعان ما أصلحته قوات الأسد.

وقال ترامب، ليلة الجمعة، عند إعلانه عن الضربات من الغرفة الدبلوماسية بالبيت الأبيض، فإنَّ "الغرض من إجراءاتنا الليلة إنشاء رادع قوي ضد إنتاج الأسلحة الكيماوية، وانتشارها واستخدامها".

ولكن الواقع أن المسؤولين العسكريين الأميركيين عانوا، بعد الهجوم، لكي يعرضوا عملية يوم الجمعة على أنها أكبر من العملية التي سبقتها، وشدَّدوا على أنَّ كمية الذخائر المستخدمة كانت الضعف تقريباً.

ما الذي استهدفته الغارات الأميركية؟

فعند عرض الخيارات النهائية، شعر ترامب بالقلق من إضرار الصواريخ الأميركية بالمدنيين.

وقال المسؤولون الأميركيون إنه عند تحديد منشآت تخزين الأسلحة الكيماوية والمنشآت البحثية الكيماوية بوصفها المستهدفة، سعى ترامب للحصول على تأكيدات بأنَّ ضرب هذه المخزونات الاحتياطية لن يؤدي إلى إطلاق أبخرة تتسبب في جرح أو قتل من يعيشون في الجوار.

وقال مسؤولون عسكريون، يوم السبت ١٤ الماضي، إنهم لا يعتقدون أنَّ أحداً قد قُتِلَ في هذا الهجوم، بما في ذلك موظفو الحكومة السورية، إذ استهدف الهجوم منشآتٍ غير سكنية في منتصف الليل.

وعلى الرغم من مناقشة خيارات باتخاذ إجراءات أكثر توسُّعاً، فإنَّ الخطة التي أقرها ترامب في النهاية، والتي كانت تشتمل على خليطٍ من الصواريخ المطلقة عبر الجو والبحر وضرباتٍ جوية مباشرة مُعقَّدة، كانت تهدف كذلك إلى تقليل المخاطر التي قد يتعرَّض لها الجنود الأميركيون وجنود الحلفاء، وتقليل فرص تصعيد غير مرغوب به، وذلك بحسب مسؤولين.

وكان مستشار الأمن القومي، جون بولتون، في أسبوعه الأول في وظيفته، قد مثَّل صوتاً مُتشدِّداً يحثُّ على استعراضٍ واضح للقوة من شأنه أن يردع الأسد.

واستمع ترامب أيضاً إلى بعض المُتشدِّدين في الكونغرس، بما في ذلك السيناتور ليندسي غراهام (الجمهوري من ولاية ساوث كارولينا)، الذي حثَّ الرئيس على التخلي عن خطته لسحب القوات من سورية.

وقال غراهام: "إنني أخشى أنه عند انقشاع الغمام، فإنَّ هذه الضربة سوف يُنظَر إليها باعتبارها استجابةً عسكرية ضعيفة، وسوف يكون الأسد قد دفع ثمناً ضئيلاً لاستخدام الأسلحة الكيماوية مرةً ثانية".

الخوف من الانتقام

وقال مسؤولون أميركيون إنَّ ترامب قد نفد صبره وأراد اتخاذ الإجراء العسكري بسرعة، لكنَّ وزير الدفاع الأميركي، جيمس ماتيس، والجنرال جوزيف دنفورد، رئيس هيئة الأركان المشتركة، أدارا عملية أكثر تداولاً وحرصاً.

إذ تكلم ماتيس ودنفورد، بحسب مسؤولين، مع ترامب عن المخاطر المُتضمَّنة لتدشين عملية عسكرية في سورية، بما في ذلك احتمالية التصعيد مع روسيا وإيران، أو حدوث أمر غير مقصود من شأنه جر الولايات المتحدة إلى الحرب السورية.

وقال ماتيس للصحافيين بعد الهجوم مباشرةً: "لم يكن هدفنا مفاقمة هذا الأمر. لقد كنَّا شديدي الدقة وكان إجراؤنا متناسباً".

وقدَّرَ مسؤولون عسكريون أنَّ الانتقام السوري أو انتقام حلفاء سورية قد يأتي مباشرة أو بطريقة يصعب الكشف عنها، مثل هجمات على طراز هجمات المعارضين التي واجهتها الولايات المتحدة من الميليشيات المدعومة من إيران خلال حرب العراق.

وعلى الرغم من إلحاح ترامب على معاقبة نظام الأسد، فقد سمح الرئيس لماتيس وقادته العسكريين بعددٍ من الأيام لتنسيق الهجوم مع الحلفاء في فرنسا وبريطانيا، وهو ما قال البنتاغون إنه سوف يتطلب مناورات بحرية وتنسيقاً للأهداف بين دول ثلاث.

وقال المسؤولون العسكريون الأميركيون أيضاً إنَّهم بحاجة إلى الوقت لتطوير الأهداف الصحيحة، فرغم أنهم كانوا يتابعون المواقع الكيماوية السورية المعروفة بشكل متقطع على مدى سنوات، فإنَّ وقت الرصد الجوي كان مُكرَّساً في معظمه لمناطق أخرى في سورية، حيث تستمر الولايات المتحدة والقوات المحلية المتحالفة معها في محاربة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش).

وقد كان هذا الأمر يعني احتياج الجيش الأميركي لتحديث استخباراته حول المنشآت الكيماوية السورية، قبل أن يكون باستطاعة المستهدفين إنشاء "قوائم الأهداف" التي سوف توجه العملية.

وهكذا جاءت محصلة الضربة خليطاً من غضب ترامب الذي عبر عنه على تويتر ومن حرص مسؤوليه وقادته، فهل أنجزت المهمة كما قال، أم الواقع أنه لا أحد دفع ثمن وعيده المزعوم.

عن "واشنطن بوست" و"نيويورك تايمز"

عاصفة «الكيماوي»: الأزمة السورية تدخل مرحلة جديدة

بقلم: جورج سمعان

تدخل الأزمة السورية مرحلة جديدة. «عاصفة الغوطة الكيماوية» و «الرد الأطلسي» ينقلانها إلى مشهد استراتيجي آخر. استهدفت الضربة الأميركية - البريطانية - الفرنسية البرنامج الكيماوي السوري وقواعد ومراكز ومستودعات عسكرية وبحثية مرتبطة به. إنها الموجة الأولى أو الرسالة الأولى التي يفترض ألا تقتصر نتائجها على تدمير قدرة النظام في دمشق على استخدام الأسلحة المحظورة دولياً. لا معنى لها إن لم تستثمر سياسياً. وكان سيل التصريحات والمواقف الدولية التي سبقت الحدث أجج الصراع بين موسكو وواشنطن. تداولت الدوائر الأميركية شروطاً وضعتها إدارة الرئيس دونالد ترامب لتحاشي العمل العسكري. بالطبع، لم تقل الدول الثلاث التي تولت تنفيذ العمل العسكري بتأييد واضح من حلف «الناتو» أن هدفها إسقاط النظام في دمشق. ولم تقل أنها على استعداد لمنازلة روسيا. ولا هذه ادعت أنها ستنخرط في المواجهة لحماية هذا النظام. الطرفان كررا الحرص على رفض المنازلة المباشرة. لكن الرئيس ترامب اعتبر أن هذه الضربة إثبات على فشل موسكو في الوفاء بوعدها منع لجوء النظام السوري إلى استخدام الكيماوي. وعبر مداورة أن ما حدث موجه أيضاً إلى الرئيس فلاديمير بوتين الذي تلقى إهانة كما ذكر سفيره في نيويورك!

لم يكن ممكناً التراجع عن قرار الرد. وسياسة الغموض التي اعتمدتها واشنطن ولندن وباريس فرضتها اعتبارات عسكرية بحتة. وكان واضحاً أن خيار اللجوء إلى العمل العسكري وحده على الطاولة، ولا خيارات أخرى، كما قالت الناطقة باسم البيت الأبيض سارة ساندرز بعد اجتماع مجلس حرب الرئيس ترامب. وعبرت بريطانيا عن تصميمها على رد فعل دولي على نظام الرئيس بشار الأسد لمنعه من استخدام السلاح الكيماوي مستقبلاً. هذا ما صرحت به تريزا ماي رئيسة الوزراء التي تخوض «معركة كيماوية» مع موسكو بعد اتهامها بتسميم الجاسوس الروسي سكريبال في أراضيها. ونقلت هذا الملف إلى مجلس الأمن. ومثلها الرئيس الفرنسي إيماونويل ماكرون أعلن أن الرد على دمشق «سيكون في الوقت الذي نختاره». وحتى تركيا نادى قياديوها بوجوب إبعاد الرئيس الأسد من رأس السلطة والانتقال إلى مرحلة الحل السياسي. بدا أن الجميع كانوا ينتظرون موقف واشنطن. وموقف هذه لم يكن غامضاً. منشأ هذا الغموض تغريدات الرئيس ترامب ورد فعله السريع والتلقائي وغير المحسوب، تماماً مثلما فعل آخر الشهر الماضي عندما أعلن الانسحاب سريعاً من سورية. لم يرجع إلى أركانه الذين يقتنصون الفرصة الآن لترسيخ استراتيجية واضحة حيال هذا البلد والمتصارعين فيه وعليه. لن يخرجوا منه كما توقع منافسوهم وخصومهم. بل يعملون على إعادة تصويب الموقف. وزير دفاعه جيمس ماتيس الذي يعرف أن ضربة عسكرية كتلك التي استهدفت مطار الشعيرات قبل سنة لن تثمر ولن تبدل في واقع الحرب والحلول السياسية المتداولة. واستخدام النظام السلاح المحظور في الغوطة لم يكن المرة الثانية أو الثالثة والرابعة... ولم يتحرك المجتمع الدولي لردعه. بل إن العالم كان إلى أيام يتفرج عاجزاً على ما كان يجرى في ضواحي دمشق الشرقية والجنوبية.

الجنرال ماتيس صوب عشية الضربة مباشرة على موسكو. كما فعل رئيسه بعد دقائق على انتهائها. اتهمها بالتواطؤ مع دمشق. وهو لم يخرج عن شبه إجماع دولي يتهمها بالمسؤولة عما حصل ويحصل في سورية بسبب تعطيلها مجلس الأمن. وهو ما دفع الغرب إلى التحرك خارج إطار المنظومة الدولية. وأعلن بوضوح لا لبس فيه ولا غموض ما يمكن اعتباره سياسة جديدة أو إحياء لموقف قديم. أكد التزام بلاده إنهاء الحرب في بلاد الشام على أساس جنيف والقرارات الدولية. وكشف موقفه هذا أن العاصفة الحالية يجب أن تثمر. وأنها ليست «زوبعة» أثارها الرئيس ترامب وستهدأ قريباً، كما توقعت خطأ دوائر روسية لجأت إلى لعبة الوقت لتنفيس الاحتقان. وأن الولايات المتحدة ليست دولة عاجزة ترتضي بما يوزع عليها. ولا بد من قلب موازين القوى. لا بد من إسقاط «ورقة القوة والسلاح» التي يتوكأ عليها الرئيس بوتين لمقارعة أميركا وأوروبا وتعديل النظام الدولي... بالقوة والسلاح. وقد حذر قادة روس من أن الضربة هدفها «تدمير العملية السياسية برمتها» في بلاد الشام. وهم أصابوا إذا كانوا يقصدون بذلك خطة الرئيس فلاديمير بوتين ومشروعه في سورية. فما تريده إدارة ترامب اليوم من وراء الضربة هو تغيير قواعد اللعبة التي أرساها الكرملين طوال السنة الماضية. الصقور فيها غاظهم تقويض الرئيس الروسي جميع القرارات الدولية معولاً على الحسم العسكري، وعلى تحالف مع تركيا وإيران صاحبتي النفوذ على الأرض. وعلى تفاهم مع إسرائيل وحتى الأردن ليكونا بعيدين من موقف الولايات المتحدة. وأزعجهم سوء تقديره للانكفاء الأميركي حتى أخرج نظيره ترامب فأعلن فجأة قبل أيام أنه قرر الانسحاب تاركاً له ولشريكيه تحمل الأعباء.

والواقع أن الكرملين خرج على تفاهمات أبرمها العام الماضي مع البيت الأبيض قضت بتقسيم سورية مناطق نفوذ للمتصارعين في هذا البلد من أجل وقف الحرب والفصل بين المتحاربين برقابة أممية لحدود هذه المناطق، في انتظار نضج التسوية السياسية. هكذا، قامت «الجبهة الجنوبية» على أساس تفاهم مع أميركي - روسي – أردني (وإسرائيلي ضمناً) على أن تكون لتركيا حصتها في الشمال، ولإيران مواقعها مع النظام، وللكرد «إدارتهم». لكن ما حدث لاحقاً أن موسكو فتحت مسار آستانة وقررت «مناطق خفض التوتر». ثم بدا أن أنقرة التي توغلت شمال سورية إلى عفرين واجهتها دعوات من «شريكيها» في هذه المناطق بتسليم منطقتها إلى قوات النظام. وكانت إيران نادت بـ «تحرير» شرق البلاد وتقدمت نحو الجنوب. وكان رد الأميركيين قاسياً بضرب قوات لميليشيات النظام وحلفائه وعناصر روسية غير نظامية تقدمت شباط الماضي نحو مواقع لـ «قوات سورية الديموقراطية»، وألحقت بها خسائر بالعشرات وقيل بالمئات. وتضاعفت الغارات الإسرائيلية على مواقع تعتقد بأن لإيران وحلفائها قواعد فيها. وكانت هذه العمليات العسكرية نذير اعتراض على دور روسيا وابتعادها من التفاهمات السابقة، خصوصاً في ما خص التمدد الإيراني. وجاء مؤتمر سوتشي، على رغم فشله، كأنه إصرار روسي على التفرد بالتسوية. وجاءت قبل أيام قمة أنقرة لتؤكد هذا التوجه.

ما قد تسعى إليه إدارة ترامب من وراء هذه العاصفة العاتية هو وقف كل المسارات التي نهجتها موسكو بعيداً من المعنيين الآخرين. أي إن المواجهة القائمة لا تستهدف النظام السوري وبرنامجه الكيماوي بقدر ما تستهدف السياسة الروسية برمتها، وربما وضع حد لطموح الرئيس بوتين في استخدام سورية منصة انطلاق إلى المنطقة كلها. لذلك، يشعر سيد الكرملين الذي اتهمته لندن بتسميم الجاسوس سكريبال وابنته فأشعل «حرباً ديبلوماسية» بالطعنة والإهانة. لم يثمر تحذيره في حمأة التوتر إلى التحذير من «أن الوضع الدولي يزداد فوضوية». وخاب أمله بأن «تكون للفهم الإنساني السليم اليد العليا في نهاية المطاف، وأن تتحرك العلاقات الدولية في اتجاه بناء». وكان ملفتاً أن نظيره الأميركي الذي يرفع شعار «أميركا أولاً» لا تروقه العودة إلى الحرب الباردة، لذا دعاه إلى وقف سباق التسلح، مذكراً إياه بأن «روسيا تحتاج إلينا للمساعدة في دفع اقتصادها، وهذا أمر سهل القيام به». ولعله أراد تذكيره بأسباب انهيار الاتحاد السوفياتي، إذ لا يكفي التوازن العسكري والنووي بين بلديهما ليدفع روسيا إلى مقارعة أميركا ومشاركتها على قدم المساواة في إدارة شؤون العالم، فيما اعترفت حكومتها أخيراً بأن الوضع الاقتصادي دقيق وصعب بسبب العقوبات الأميركية والأوروبية.

السؤال اليوم هل تمضي إدارة ترامب فعلاً في سياسة الانخراط بديلاً من الانكفاء أو العمل على الانسحاب باكراً، كما صرح ترامب قبل أسبوعين، وهو انسحاب يقود إلى الابتعاد من الشرق الأوسط كله؟ فالكل متفق على أن عشرات الصواريخ التي ضربت مطار الشعيرات قبل سنة لم تغير ولم تبدل شيئاً. هل يدفع الخيار العسكري أميركا وروسيا إلى تفاهمات جديدة في شأن سورية تتناول مستقبل نظام الأسد والوجود الإيراني الذي أصابته شظايا الضربة الصاروخية فجر السبت؟ وكانت غارة إسرائيلية على مطار تيفور كبدته خسائر فهدد بالثأر، فحذر وزير الدفاع الإسرائيلي أفيغدور ليبرمان من أن نظام الرئيس الأسد والأسد نفسه «سيزولان من الخريطة والعالم إذا حاول الإيرانيون ضرب إسرائيل أو مصالحها من أراضي سورية». حتى الآن لا يبدو أن روسيا سترضخ. بل ستعمل على الرد على التحدي و «الإهانة». لكن المعادلة قاسية ومعقدة. فواشنطن لم تتراجع ولن تتراجع. بل جددت دعوة موسكو إلى الكف عن دعم النظام السوري والعودة إلى ممارسة دورها في ترسيخ السلم والاستقرار. أي إنها تدعوها إلى تغيير سلوكها وسياستها. وهو مسار لا يمكن الرئيس بوتين سلوكه. ليس سهلاً تسليمه بتقليص دور بلاده في سورية بعد كل الجهود التي بذلها على مدى أكثر من سنتين. مثلما ليس سهلاً عليه الذهاب إلى حرب مباشرة مع الأطلسي الذي أعلن تأييده الضربة الأخيرة... فهل يعود إلى قاعدة جنيف حلاً وحيداً لأزمة سورية التي أكد الوزير ماتيس التزام بلاده وقف الحرب فيها على أساس قرارات المجتمع الدولي؟ أم يواصل نهج اللجوء إلى أساليب سوفياتية بائدة ليرد بالوكالة على الإهانة؟ وأين سيكون الرد؟ وهل يشرك شريكه الإيراني في رفع التحدي؟

عن "الحياة" اللندنية